المحاضرة التاسعة
موسيقى الأزجال

أولا: تعريف الأزجال:

أ- **لغة:** الزجل في اللغة اللعب والجلبة ورفع الصوت وقد خصُّوا بهِ الغناءَ والتطريب، وسحابٌ زَجَل أي ذو رعدٍ وصوتٍ شديدٍ والزجَلَة صوتُ الناس وضوضاؤهم[1].

ب-**اصطلاحا**: الزجل فنّ يتخذ من العامية منهجا له، لا يراعي فيه قواعد الإعراب، ولا الصّيغ الصحيحة للكلمات، بل يُنظم من الكلام الدارج وألفاظ الكلام العادي الّذي يدور بينهم في الحديث"[2]

ثانيا: نشأة الزجل وتطوره:

يشير عدد من الدارسين إلى أنّ فنّ زجل قد ظهر في الأندلس في أواخر القرن الرابع الهجري وقيل أنّ أبي بكر بن قزمان (ت555ه) هو أوّل من كتب فيه، ويعدّ بعضهم ابن عبد ربه صاحب كتاب (العقد الفريد) أوّل من كتب فيه وطوره وجنح فيه نحو التصوّف والزّهد بسبب المصائب الّتي أحاطت بالأندلس.

وقد انتقل الزجل إلى المشرق ومصر، وأوّل من عني به من المشارقة صفيّ الدّين الحلّي في كتابه (العاطل الحالي والمرخص الغالي)، إذ جعله في أوّل الفنون الشّعرية غير المعربة، وكذلك جاء ذكره في كتاب (بلوغ الأمل في فنّ الزّجل) لتقيّ الدّين أبي بكر بن حجّة الحموي الشّامي حيث تابع الاهتمام بهذا الفنّ بعد صفي الدين الحلي .

ويذكر لنا صفي الدّين الحلي في كتابه (العاطل الحالي) رأيه في مكانة هذا الفن، فالزّجل هو أكثر الفنون المستحدثة أوزانا وأرفعها رتبة وأرجحها ميزانا وأشرفها نسبة، فأوزانه متعدّدة وقوافيه متجدّدة.

ثالثا: بناء الزجل:

سنستعين بزجل من أزجال ابن قزمان لنجعله نموذجا لدراسة بناء هذا الفن. وهو من أبسط طرائق نظْم الأزجال. ويتكون هذا الزجل من ستة أبيات، وهو زجل تام، ومن المرجح أن يكون من النماذج الأولى التي نُسجت على منوال الموشحات. لكن الأزجال الأندلسية لا تتقيد بعدد الأبيات، فمنها ما يفوق الأربعين بيتا. وقد يأتي الزجل أقرعَ أيضا. غير أن الأزجال الأندلسية التي تخلو من المطلع قليلة فيما وصل إلينا من هذا الفن.

1- المطلع: يتكون المطلع في الأزجال من جزأين مختلفي القافية (أ ب)، ومثاله مطلع زجل لابن قرمزان: لسْ نفيقْ من ذا الصدود أبدَا أو نعنقْ في ذراعي الحبيبْ

وقد يتركب المطلع أحيانا من جزأين متفقي القافية (أ أ) فمن ذلك زجل لمدغليس أوله:

قد نبتْ نتخلعْ ونحزم للعذول أن صَدّعْ

---

[1] - ينظر: لسان العرب: 3/ 1814، مادة (زَجَل).

[2] - ابراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ط2(1952م)، ص231.

ويمكن أن يتكوّن المطلع من أربعة أجزاء مثل مطلع زجل لتقي الدين الحموي:

حين رققت نظم الغـــزل تأنس غزالي الشـــــرود
وقال صف عيوني الوقاح وقول سود بها قلت سود

2- البيت: يتركب البيت في الموشحة كما ذكرنا من الدور والقفل:

أ- الدور: يتكون الدور، عادة، من ثلاثة أجزاء مفردة جاءت على قافية واحدة، وهو

بي نكد بليت أنا ويْ عذابْ
الوصال يا قد نسي بالعتابْ
قد نحل جسمي ورق وذابْ

وقد تكون أجزاء الأبيات مركّبة من فقرتين كالزجل الذي أوله:

لا شَـــرابْ إلا قديمْ لا مليـــحْ إلا وَصُولْ
إذ نقول فمـــك نريدْ لسْ يخالف ما نقـولْ
والزيـــــــارَ كلّ يَومْ لا بخيـــلْ إلا ملـولْ

ب-القفل:

وقد يتكرر المطلع بشطرَيه في القفل، كما قد يتكرر جزء واحد فقط من المطلع، وهذا الغالب في الأزجال الأندلسية، وبذلك يكون القفل نصف المطلع، ومنه زجل لأبي بكر بن قزمان:

يا جَوْهَري يا نعم الصّديقْ
تـــمّ دقيق لسْ ثمْ دقيقْ
بأربَعَه نشـــكو من الشبَعْ
لس بَاه ذهيْبـــهْ ولا قِطعْ
ولا عَصَـــــايد ما نبتلعْ
ولا دشيشـــات بما نفيق

3- الخرجة

الخرجة هي القفل الأخير من الزجل ولا تختلف في ذلك بشيء عن الخرجة في الموشح إلا في اللغة أحيانا. وتسمّى مركزا أيضا، ولعلهم سمّوها كذلك لاهتمامهم المفرط بها. والقفل الأخير من الزجل الذي أوردناه مثالاً هو:

قلْ متى تجين؟ قالَ غدَا
وغداً للناظـــرين قريبْ

وغالبا ما تكون الخرجة بلغة فصيحة كما هو الحال في المثال السابق، لأن الزجل يُنظَم بلغة غير معرّبة أو ما يشبهها، ولا بدّ من تمييز الخرجة منه، ولذلك يلجأ الزجّال الأندلسي إلى نظْمها باللغة الفصحى. أما إذا كانت بلغة غير معرّبة أو بالعامية فتتصدر بألفاظ "أنشدَ، أغنّي، أو غنّى" وغيرها، وذلك في البيت الأخير من الزجل حتى يتبين للسامع أن الزجل قد وشك على الانتهاء وستأتي الخرجة.

ثالثا: أوزان الأزجال:

لمّا كان الموشح وهو من الشعر الفصيح، سببا في ظهور الزجل، فمن الطبيعي أن تكون أوزان الزجل من أوزان الشعر العربي؛ لكن ليس كل أوزان الزجل هي من البحور التي استنبطها الخليل من الشعر، فمنها ما يوافق الأوزان الخليلية ومنها ما هو فرع منها وهو الغالب في الأزجال الأندلسية. وبما أن أكثر الأوزان الزجلية متفرعة من العروض العربي فهي لذلك عربية خالصة ولا تخالفها في شيء إلا ما جاء على النبر، وهذه الطريقة تغلب على الشعر الملحون